(٣) فلسفة الشعب :

الفلسفة الصامتة

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجى

لست أبغى أن أعمو الفروق العديدة التى تميز فكر الفيلسوف عن فكر الجمهور ، إنما أريد التقريب وعقد الصلات بينهما ، وبيان أن الهوة المزعومة بينهما لا وجود لها . ذلك أن المذاهب الفلسفية استمرار طبيعى لفلسفة صامتة ، منسال فى آلاف الأذهان خفية كما تتسلل النار الكامنة ، حتى تشتعل وتومض وميضاً يبهر الأبصار بعد أن تكون قد مرت بدور كمون طويل . فما من مذهب جديد إلا وله سوابق ومهدات فى مذاهب السابقين ، وهذه بدورها سبقتها نظرات ولمحات صامتة تبدو فى حكم العامة وأساطيرهم وشعر الشعراء وقصص الأدباء . ولكن هؤلاء جميعاً بدت النظرات الفلسفية فى إنتاجهم دون قصد أو وعى بها ومن أجل هذا أسميها فلسفة صامتة . إنما الفلسفة الناطقة هى تلك التى تعبر عنها المذاهب الفلسفية التى صاغها أصحابها على وعى منهم بها ، والتى تبدو جديدة مبتكرة . وما هى — لو تأملناها وأحطنا بملابساتها — غير تأليف وتوفيق جديد بين عناصر قديمة مرت بالعقل البشرى من قبل ويوسعنا الاهتداء إليها فى مذاهب السابقين بل منبثة فى ثنايا الشعر والحكمة الشعبية القديمة قدم الإنسان فانه

إليك مثلا أفلاطون وهو صاحب أول مذهب متكامل شامل فى تاريخ الفلسفة . يبدو مذهبه عملا ابتكارياً صرفاً . ولكن الحقيقة التى يكشف عنها تاريخ الفلسفة أن بعض النتائج التى وصل إليها غيره من المفكرين السابقين عليه ، قد دخلت فى تكوين هيكل فلسفته : نظرية هرقليطس فى التغير المستمر ، وفكرة فيثاغورس فى العدد والموسيقى ، ورأى بارمنيدس فى الوجود ثم فلسفة سقراط أستاذه الحبيب ، هذه جميعاً امتصها أفلاطون وتمثلها حتى استحالت إلى كيانه الفكرى كما تستحيل الأغذية إلى كياننا الجسمى . ليس هذا فحسب بل نستطيع لوثاثرنا أن نجد فى الفكر القديم عند الهنود والمصريين أفكاراً تتصل بسبب قريب بأفكار منبثة فى مذاهب أفلاطون .

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر :

« إن مبادئ أفلاطون الأساسية وفكرانه الجوهرية التى قام عليها مذهبه ، تدفع بنا إلى الرجوع سعياً ، لا إلى أسلافه الأقربين ولا إلى معلمه العميق النور سقراط ، الذى عاش فى صفحات ما كتب أفلاطون ، ولكن إلى مدارس متفرقة سبقته فما كبت على التأمل الفكرى فى إفريقية وآسيا وإيطاليا . ومن قبل هؤلاء قد نرجع إلى عصر الشعر ، ذلك العصر الذى نرى فيه بدايات الفلسفة تكاد تبدو من ضباب الزمن ، وهى لا تكاد تعرف حتى من قيمة ذاتها شيئاً . ثم مد نظرك لأبعد من هذه الفلسفة غير الواعية الحقيقة ما هى ، وانتصر فى ضمير الزمان إلى تلك البدايات التى تمثلت فى الميول العقلية والخلجات النفسية ونراها قوى الفكر إلى حجب العالم ، تجد أن هذه الأشياء قد شهدت ميلاد فكرات أفلاطون بنسب ، متحدرة إليه من مدنيات عتيقة موغلة فى القدم من الهند ومصر ، وتجد فوق ذلك أن هذه الفكرات لا تزال حتى اليوم تؤثر أثرها المحتوم فى عالم التأمل . »[1]

وليس هذا عجيباً إذا علمنا أن الطريق إلى التعليلات الفلسفية ليس عقل الفيلسوف وحده فهنالك فى النفس حدس صادق ، أو حس سليم هو طريق آخر يفضى إلى نظرات عامة فى الكون والأخلاق فيها من الصدق والصفاء ما يجعل لها قيمة تدانى قيمة مذاهب الفلاسفة . والخلاصة أن المذاهب الفلسفية يقابلها فلسفة واقعية صامتة أو هى — كما قال الأستاذ إسماعيل مظهر : « لا تعى ذاتها » .

عقد الأستاذ « ألبير بايه »[2] فى كتابه « أخلاق العلم »[3] فصلا يبين فيه أن النظريات الفلسفية الأخلاقية ، تسبقها أخلاق واقعية ، وأنها مجرد تركيز أو تبلور لتصورات الناس الواقعية لمثل أعلى . بل ويفضل الأخلاق الواقعية على النظريات الفلسفية لأن أثر الأخيرة فى تطور المجتمع أثر يكاد ينعدم .

يقول الأستاذ بايه بهذا الصدد :

---

(١) فى مقال له بعنوان « الفيلسوف الباكى » هرقليطس بالمنطف عدد يونيو سنة ١٩٤٥

(٢) الأستاذ بالسربون

(٣) قام بترجمته تلميذه الدكتور عثمان أمين بعنوان « دفاع عن العلم »

« انتظر فى أكبر تحول عرفته المجتمعات البشرية : وهو إلغاء الرق . لو سئلنا اليوم فى القرن العشرين باسم أى مذهب استنكر الرق ؟ استطعنا أن نجيب جواباً لا يخلو من منطق : إن ذلك باسم فلسفة القرن الثامن عشر التى أعلنت حقوق الإنسان ولكنا نعلم حق العلم أن تلك النظرية لم تحرر إلا بعد حين ، أى بعد أن كانت الهمة قد تمت ، وبعد أن كان الرق كله قد اختفى أو كاد يختفى من مجتمعاتنا ، ولكن نبحث فى التاريخ عن المذاهب التى أدت إلى إلغاء الرق : يُحيل بعض المفكرين إلى الأخلاق الرواقية ، ولكن الرواقيين كان لهم أرقاء . ويحيل البعض الآخر إلى الأخلاق المسيحية ، ولكن المسيحية كان لها أرقاء . ولقد كان للمفكرون من جميع المدارس يجدون دائماً صيغة مهنة تمنيهم على أن يراعوا النظام القيق ، وكأنهم يحملون عليه بإحدى اليدين ويؤيدونه باليد الأخرى . ابحث ما شئت فى التاريخ ، فإنك لن تجد ذلك المشهد الرائع : مشهد مذهب يقوم فيقضى على الرق . ولكن من حسن الحظ أن هناك أخلاقاً واقعية كانت تعمل وتؤثر ، بينما كان الفلاسفة يتكلمون ويكتبون . وتلك الأخلاق الواقعية هى التى ألهمت « تيرون » ذلك الحنين إلى الإنسانية ، أن يحقق ذلك العمل الثورى العظيم الذى أباح للرقيق إذا هو مُل معاملة بالغة القسوة أن يرفع شكواه إلى القضاء . وألهمت القرارات الكثيرة التى أصلحت حال الرقيق ثم المُوالى . فماذا كانت حقيقة تلك الأخلاق الواقعية ؟

لو سئل الذين كانوا أول من عمل لهذه الأخلاق ، يقصون فى متناقضات تستدعى الإشفاق حين يستهدفون إلى الإشارة بهذا الصدد إلى شىء من المبادئ (١) . ولكنا نحن بعد حين نرى النهج الذى سلكوه ، والذى انتهى إلى حقوق الإنسان . إن الأخلاق الصامتة المتضمنة فى جهودهم المتواصلة أقوى من العبارات المزعومة التى نقرأها فى كتب الفلاسفة » .

أجل ، بينما كان الفلاسفة يكتبون ويناقشون مذاهبهم الفلسفية فى الأخلاق كانت هناك فى ضمير الشعب فلسفات أخلاقية صامتة ، تؤثر أثراً قوياً ولكن فى صمت حتى تحققت بعد أن كانت أملا تهفو إليه النفوس ذلك هو التحرر من الرق والعبودية .

الفلسفة فى الإنتاج الأدبى :

ألا يعرض ذلك دليلا على أن الفلسفة تمد جذورها فى حياتنا إلى أعماق سحيقة ؟ وأن لحظات قد تواتى جمهور الناس — رغم طغيان المشاغل اليومية — فتنفذ بصائرهم إلى هذه الأعماق ، وتغوص عقولهم إلى القاع لتصعد محملة بلآلئ الأفكار يذيعونها أمثالا مأثورة أو حكما ، وقد لا يفصحون عنها لفظاً ولكن تفصح عنها حياتهم بما تنطوى عليه من معنى فلسفى ؟ ولو تركنا طبقة الجمهور إلى طبقة الكتاب من غير الفلاسفة ، لوجدنا فى طيات كتبهم نظرات وتعميمات فلسفية . مثال ذلك : مسرحيات سوفوكليس وشكسبير وموليير وروايات بردناردشو وأندريه جيد ونجيب الريحانى وشارل شابلن وجوته ، نرى فيها جميعاً لمحات فلسفية مبثوثة هنا وهناك فى إنتاجهم ، وطالما كانوا أكثر توفيقاً من الفلاسفة ؛ إذ سرعان ما تنفذ اتجاهاتهم إلى شعاب نفسك فى يسر لتستقر فى الأعماق . وما ذلك إلا لأنهم لم يعمدوا إلى ما يعمد إليه أهل الصنعة من الفلاسفة حين يجردون الأفكار من الحياة ، وينتزعونها من الواقع الذى تولدت فيه ، ونمت وازدهرت .

أيا تولى الطرف فى الإنتاج الروائى الخالد يقع بصرنا على بطل يجسم مشكلة من المشاكل الإنسانية ، تعترضنا جميعاً أيا كان زماننا وأيا كان مكاننا ، كمشكلة السعى الأبدى لبلوغ الحق والخير والجمال كما تصورها مأساة « فاوست » ، والصراع الدائم بين قوى الفرد وقوة المجتمع العاتية التى لا تأبه لآمال الأفراد أو آلامهم — كما تبرزها قصة الخلاق الفيلسوف « فيجارو » ، أو روايات نجيب الريحانى التى تضحكنا رغم انطوائها على المأساة البشرية الكبرى : ما تلاقيه النفوس الخيرة من عنت فى هذا العالم والتى تنتهى جميعاً إلى اعتبار الخير غاية فى ذاته والسعادة فى راحة الضمير والمتتبع لروايات شارل شابلن خاصة فى الفترة الأخيرة من حياته يلمس روحاً فلسفية تسرى فى جوانبها . لو تأملنا آخر روايات «المسيو فيردو» يحترف قتل السيدات لاستخلصنا الدرس العميق الذى يلقيه على الإنسانية العاتية الحمقاء « التى ترفع مثيرى الحروب

(١) يقصد أن إرجاع هذه الأخلاق الواقعية إلى مذهب من مذاهب الفلاسفة عمل لا يخلو من تناقض .

الذين يسفكون دماء الملايين إلى منزلة الأبطال الخالدين ، وتحكم بالإعدام على فرد قتل عدداً قليلا من النساء ليحصل منهم على ما يتم الأود بعد أن طرق الأبواب فلم يجد رزقاً » ، ذلك الدرس يفرغ شارل العظيم في الحوار الأخير بينه وبين القسيس الذي أتى يباركه قبيل تنفيذ حكم الإعدام فيه ، إذ يعلن للقسيس عدم احتياجه إليه فيلح القسيس عليه أن يصلي ويتحدث إليه لعل الله يستجيب له فيقول « المسيو فيردو » : ليس الخلاف يا سيدي بيني وبين الله إنه بيني وبين البشر » أجل إن النظام الطبيعي خير ولكن البشر هم الذين يفسدونه . البشر وحدهم مسئولون عن وجود الشر في العالم ويخطئ من يدعي أن الله يريد بالعالم شراً .

عالج كثير من الفلاسفة في أسفار عدة موضوع الإرادة الإنسانية أهي حرة أم مجبرة ، وعالجوا فكرة القضاء والقدر ، وفكرة الاتفاق في الطبيعة والحظ لدى الإنسان . ونستطيع الاستنارة في هذه الموضوعات لو فتشنا عنها في كتب الفلاسفة ، ولكننا نراها في ضوء باهر ونلمسها ونحياها لو أنا عشنا لحظات مع الشاعر الروائي سوفوكليس في مسرحيته « أوديب ملكا » التي كتبها في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد ، أو لو أنا جلسنا إلى « أندريه جيد » نقرأ روايته « أوديب » التي كتبها في فرنسا منذ أعوام قلائل . خمسة وعشرون قرناً من الزمان تفرق بين الخالدين ، دون أن تمحو من الأذهان مشكلة فلسفية كبرى : تلك هي الصراع بين القضاء المحتوم والإرادة الإنسانية المختارة .

ولأترك القارئ لحظات إلى أستاذنا الدكتور طه حسين يكشف له عن الفلسفة التي تتضمنها قصة أوديب عند كل من سوفوكل وجيد :(١)

« هناك قضاء كان اليونان يؤمنون بأنه مسيطر على كل شيء وعلى كل كائن لا يفلت منه الآلهة أنفسهم . وهناك الإنسان كان يشعر بأن له عقلاً يميز به بين الخير والشر ، وبأن له إرادة يعمد بها إلى أحد هذين الشيئين اللذين يميز العقل بينهما وهما : الخير والشر . فليس هناك إذن بد من أن يكون اصطدام بين القضاء المحتوم الذي لا يفلت منه الإنسان أو الإله ، وبين هذه الإرادة التي زعم الإنسان أنها حرة مختارة تستطيع أن تعمد إلى ما تحب وتنصرف عما تكره سواء أراد القضاء أم لم يرد .

هذه الفكرة التي قصد سوفوكل إلى أن يصورها في قصته ومن قبله كان الشاعر اليوناني المثل (أيسكاوس) الذي ذهب في تمثيله إلى تغليب القضاء على الإرادة الحرة المختارة ، ومن بعده جاء الشاعر اليوناني المثل (أوريبد) الذي ذهب إلى كسب الحرية للإرادة الإنسانية وأنكر القضاء أو كاد ينكره . أما سوفوكل فتوسط بين الأمرين . لم ينكر القضاء ولكنه لم يلغ الإرادة الإنسانية ، وإنما اعترف لها بشيء من الحق واعترف لها بأنها إن لم تستطع تغيير مجرى القضاء ، فإنها تستطيع أن تقاوم هذا القضاء مقاومة ما ...

صور لنا سوفوكل صراعاً بين القضاء وبين الإرادة وأظهر لنا الإنسان وقد غلبه القضاء . ولكنه لم يغلبه في سهولة ويسر . وإنما غلبه بعد أن قاومه الإنسان مقاومة عنيفة متصلة ، بالغة أقصى ما يمكن أن تبلغ من القوة والعنف ... »

ثم يمضي الدكتور طه مبيناً تصور أندريه جيد لنفس المشكلة :

« يصور لنا أوديب مصارعاً للقضاء يغلبه القضاء أولا . ثم مؤمناً بنفسه معتزاً بإرادته وينتصر على القضاء آخر الأمر — أوديب عنده رمز للانسان الذي لا يؤمن إلا بنفسه وبإرادته ، قد قبل سعادته راضياً عنها ، وهو يقبل شقاءه راضياً عنه ، وهو مطمئن كل الاطمئنان إلى أن الرجل الحق هو الذي يتلقى الحياة صامداً لها راضياً عنها ، مقتنعاً بخيرها عن ثقة وعلم أيضاً ، لا يشكو ولا يتزعزع ، فهنالك سؤال واحد يلقى دائماً على كل إنسان ليس له إلا جواب واحد . أما السؤال فهو : ما اللغز وكيف يحل لغز الحياة الإنسانية ؟ وأما الجواب فهو : أن اللغز هو الإنسان ، وحله : هو أن يمضي الإنسان تبعاً لإرادته ، وفق عواطفه وشعوره وغرائزه وعقله .

هذه هي القصة التي كتبها أندريه جيد وهي كما ترون تمعن في الفلسفة ، وتبعد عن العناية الفنية » .

(الاسكندرية)

عبد المنعم الميهي

(١) نقلا عن محاضرته في نادي الخريجين المصري سنة ١٩٤٩ « الملك أوديب في الآداب المختلفة »